دار المنظومة
DAR ALMANDUMAH
الرواد في قواعد المعلومات العربية

العنوان:	إشكالية العلاقة بين العبرانيين وأرض كنعان (أرض الميعاد) كما قدمها العهد القديم : دراسة تاريخية تحليلية
المصدر:	مجلة كلية اللغات والترجمة
الناشر:	جامعة الازهر - كلية اللغات والترجمة
المؤلف الرئيسي:	أحمد، مجيد جاسم محمد
المجلد/العدد:	ع7
محكمة:	نعم
التاريخ الميلادي:	2014
الشهر:	يوليو
الصفحات:	98 - 136
رقم MD:	752776
نوع المحتوى:	بحوث ومقالات
قواعد المعلومات:	AraBase
مواضيع:	اللغة العبرية، أرض كنعان، أرض الميعاد
رابط:	http://search.mandumah.com/Record/752776

© 2021 دار المنظومة. جميع الحقوق محفوظة.
هذه المادة متاحة بناء على الإتفاق الموقع مع أصحاب حقوق النشر، علما أن جميع حقوق النشر محفوظة. يمكنك تحميل أو طباعة هذه المادة للاستخدام الشخصي فقط، ويمنع النسخ أو التحويل أو النشر عبر أي وسيلة (مثل مواقع الانترنت أو البريد الالكتروني) دون تصريح خطي من أصحاب حقوق النشر أو دار المنظومة.

إشكالية العلاقة بين العبرانيين وأرض كنعان

(أرض الميعاد) كما قدمها العهد القديم

دراسة تاريخية تحليلية

إعداد: مجيد جاسم محمد أحمد

طالب دكتوراه– قسم اللغة العبرية

كلية الآداب– جامعة عين شمس

مقدمة:

مما هو معروف أن الصهيونية قد قامت في حدود القرن التاسع عشر الميلادي على أسس ودعائم دينية دعت وروجت لها من أجل إقناع جموع اليهود الذين كانوا يعيشون وسط شعوب العالم الغربي بالعودة إلى أرض فلسطين (كنعان القديمة)، لاسيما بعد فشل حركة التنوير اليهودية في شرق أوروبا في تحقيق أهداف عتق اليهود على النحو الذي حدث في غرب أوروبا وظهور القوميات الأوربية، وما ترتب عليها من رغبة في التخلص من اليهود كجنس غريب عن أبناء هذه القوميات، مقرونة ببعض مظاهر ما عرف باسم "معاداة السامية" كرد فعل للنمو اليهودي الرأسمالي هناك، وخشية عناصر يهودية من الآثار التي يمكن أن تترتب على تفاقم الاندماج اليهودي في الشعوب التي يعيشون بينها. وكان من أهم تلك الأسس والدعائم، "فكرة أرض الميعاد"؛ حيث رأت الصهيونية في مرحلة متقدمة من قيامها ضرورة العودة لأرض الميعاد وإنشاء وطن قومي لليهود في فلسطين بعد أن كان هرتسل. أحد منظري الصهيونية السياسية. قد طرح في المؤتمر الصهيوني السادس أن يكون الوطن القومي اليهودي في "أوغندا"، ودافع عن الفكرة إلى أن صدق المؤتمر على ذلك وأرسل وفدًا لمتابعة الأمر على الطبيعة.

هكذا توجهت الصهيونية لمخاطبة وجدان جموع اليهود والعزف على أوتار الدين والحنين للماضي وإعادة إقامة الوطن القومي اليهودي معتبرين في ذلك أن فلسطين أو أرض كنعان كانت الوطن القومي والديني لليهود عبر التاريخ، حينما لم تجد الدعوى متحمسين من بين اليهود للتخلي عن أوطانهم والاستعداد للتغرب في بلد جديد تحت مزاعم لا أساس لها سوى في مخيلتهم.

وطبقًا لهذه الرؤية الصهيونية نجده طبيعيًا أن ينتفض رئيس الوزراء الإسرائيلي بنيامين نتانياهو ردًا على مؤتمر القدس في الدوحة فبراير 2012م معبرًا عن غضبه من تصريحات أبو مازن رئيس السلطة الفلسطينية متهما إياه بالكذب والتضليل حيث قال: "أن القدس هي العاصمة الأبدية للشعب اليهودي منذ آلاف السنين"

"מזה אלפי שנים ירושלים היא בירתו הנצחית של העם היהודי"

وبناءً عليه وجدنا أنه من واجبنا كباحثين عرب إماطة اللثام عن طبيعة هذه الفكرة ومدى وجود هذه العلاقة التاريخية بين أرض كنعان وهذه الجماعة وقوتها ومدى مصداقيتها؛ هذا إذا ما علمنا بأن هؤلاء اليهود قد أرجعوا نسبهم إلى بني إسرائيل، الذين يعودون بدورهم إلى الآباء العبرانيين "إبراهيم وإسحاق ويعقوب".

ولا شك أنه نتيجة عدم تعدد أو تنوع مصادر التاريخ القديم لهذه الجماعة وانحسارها في مصدر وحيد هو العهد القديم، وجدنا لزاما علينا تتبع مفهوم الأرض الموعودة في ثنايا العهد القديم كي نتعرف على طبيعة العلاقة بين أرض كنعان أو الأرض الموعودة وهذه الجماعة عبر مراحل التاريخ القديم.

وقبل مناقشة هذا الموضوع وجدنا من الضرورة بمكان التنويه إلى أن الباحث قد استخدم في عنوان بحثه مصطلح "العبرانيين" ليدل به على معنى خاص، ويشير في الوقت نفسه إلى مرحلة تاريخية معينة من مراحل التاريخ اليهودي العام، لاسيما بعد وجود إشكالية مهمة، ربما وصفناها بالمعقدة في الدراسات اليهودية القديمة، ألا وهي إشكالية التعامل مع المصطلح، خاصة المصطلحات التاريخية. فلدينا على سبيل المثال ثلاثة مصطلحات هي: "عبري وإسرائيلي ويهودي"، حيث يدل كل منها على معنى خاص، ويشير في الوقت نفسه إلى مرحلة تاريخية معينة. ومن هذا المنطلق وإيقانًا من الباحث بأهمية إتباع المنهج العلمي آثر استخدام هذا المصطلح في موضعه التاريخي المناسب.

المحور الأول: علاقة العبرانيين بأرض كنعان في فترة الآباء:

أولاً: رؤية العهد القديم لعلاقة العبرانيين بأرض كنعان– وطن أم غربة:

أ– فترة إبراهيم (عليه السلام):

يبدأ العهد القديم، طبقًا للرؤية اليهودية، رواية العلاقة بين العبرانيين وأرض كنعان مع رواية ارتحال إبراهيم (عليه السلام) من بلاد الرافدين إلى أرض كنعان، طبقًا للأمر الإلهي بالانتقال إليها: «أذهب من

أرضك ومن عشيرتك ومن بيت أبيك إلى الأرض التي أريك» (تك 12: 1). لكن العهد القديم يبدأ هذه العلاقة بالتأكيد على أن أرض كنعان رغم كل الشعوب التي تسكنها، ورغم أن إبراهيم كان آنذاك وافدًا عليها، إلا أن العهد القديم في سفر التكوين (12) يورد أن الرب قد عاهد إبراهيم أن يسكنه هذه الأرض وتكون له إرثًا أبديًا، رغم أنها لم تكن خالية بنص السفر ذاته. ورغم أن العهد القديم في سفر التكوين يخبرنا أن إبراهيم، ذلك الوافد الجديد على أرض كنعان، يتغرب فقط في مصر، ومملكة "جرار"، تلك البلدان التي ارتحل إليها خشية المجاعة، يعود في نهاية الإصحاح الحادي والعشرين ليؤكد أنه كان متغربًا في أرض كنعان، حيث يقول: «وتغرب إبراهيم في أرض الفلستيين أياما كثيرة»[1].

إن إبراهيم لما استدعاه الرب من أجل أن يقود شعبًا جديدًا مع عهد وميثاق جديد، كانت الظروف الاقتصادية في أرض كنعان صعبة، فنزح إبراهيم فورًا إلى مصر، رغم أن هناك سكانًا آخرين في البلاد ظلوا فيها بالرغم من الجوع. ومن الصعوبة بمكان الاعتقاد أن هذا الرجل الكهل الذي ترك موطنه وبيت أبيه، بأمر الرب، لكي يصل إلى كنعان (أرض الميعاد)، التي من المفترض أن تكون بلدًا "للشعب" الذي سيولد من نسله، لا ينجح في الصمود فيها، بالرغم أنه كان رجلاً موسرًا، وينزح منها إلى بلد آخر. كان من الممكن فهم ضعفه لو كانت عمته الأشواق إلى وطنه. ولكن الأمر لم يكن كذلك. إنه لم يعد إلى وطنه، لكنه نزح إلى بلد آخر[2]. فهل هذه هي علاقة الآباء بوطنهم؟

إن مما يؤكد غربة إبراهيم في أرض كنعان، ما ورد في نص العهد مع الرب الوارد في التكوين (17: 8) الذي يقول: «وأعطي لك ولنسلك من بعدك أرض غربتك، كل أرض كنعان ملكًا أبديًا. وأكون إلههم». وهكذا، فإنه حتى العهد مع الرب، بنص حديث الرب، يؤكد أن أرض كنعان هي أرض غربة.

ثم يعود العهد القديم في سفر التكوين (24: 2-4) ليخبرنا على لسان إبراهيم بالحقيقة ذاتها، وهي تبرؤ إبراهيم من أرض كنعان بالجملة: «وقال إبراهيم لعبده كبير بيته المستولي على كل ما كان له: «ضع يدك تحت فخذي، فأستحلفك بالرب إله السماء وإله الأرض أن لا تأخذ زوجة لابني من بنات الكنعانيين الذين أنا ساكن بينهم، بل إلى أرضي وإلى عشيرتي تذهب وتأخذ زوجة لابني إسحاق».

ويتكرر هذا الأمر في سفر التكوين 24: 37- 38: «واستحلفني سيدي قائلاً: لا تأخذ زوجة لابني من بنات الكنعانيين الذين أنا ساكن في أرضهم، بل إلى بيت أبي تذهب وإلى عشيرتي، وتأخذ زوجة لابني».

فحينما يريد إبراهيم أن يزوج ولده إسحاق، يرسل عبده إلى موطنه حيث أسرته وعشيرته في "حاران" لكي يختار زوجة لابنه، إذ لم يرغب في مصاهرة الكنعانيين أهل المكان وسكانه الأصليين. فقد نظر الآباء العبرانيون إلى أنفسهم كأجانب وأغراب ومنفصلين عن الشعوب التي يجاورونها لذا ابتعدوا عنها[3] . ويبدو أن هذا كان جريًا على عادة تتحكم دائمًا بالناس المغتربين، وهو جنوحهم إلى الزواج من أهلهم دون الغرباء الذين يساكنونهم؛ ولم يرد في العهد القديم أن إبراهيم رغب عن الكنعانيات لوثنيتهن، فإن أسرته في آرام النهرين كانت وظلت وثنية، ويؤكد ذلك عبارة وردت في سفر التكوين[4] تتمثل بسرقة "راحيل"، زوجة يعقوب، لأصنام أبيها حين انصرافها مع يعقوب من "حاران"[5].

كما يبدو أيضًا، أن البداوة التي تميزت بها الجماعة العبرية كان لها أثر في انعزالها، إذ غلبت عليها النزعة الفردية والنفور من المشاركة الجماعية. حتى أصبحت هذه العزلة شعارًا لهذه الجماعة وعلامة مميزة لها بين الشعوب؛ كما أن من هذه العزلة ظهرت "فكرة الاختيار"، وأن بني إسرائيل هم "شعب الله المختار"، وأصبحت مع مرور الزمن توحي إلى كل فرد منهم، أن يخلق تلقائيًا القدرة والكفاءة وما إليهما من الخصائص التي تميزه على أفراد الشعوب الأخرى التي يعيش في كنفها. فالعناصر الثلاثة: العزلة، والاختيار، والتجمع، إلى جانب العقيدة الدينية، هي مقومات بني إسرائيل التي لازمتهم طيلة تاريخهم[6].

لقد عاش إبراهيم في أرض كنعان غريبًا بين سكانها ومالكيها الأصليين، لم يمتلك فيها موضع قدم، حتى إذا فاجأه موت زوجته "سارة"، انطلق يبحث عن مقبرة يمتلكها ليواري جثمان زوجته، وموتى بيته من اللاحقين؛ وفي هذا كلم إبراهيم بني حث ليشتري منهم مقبرة، لكنهم لما كانوا يوقرونه كرجل صالح يعيش بينهم، فقد فوضوه أن يختار أفضل مقابرهم هبة منهم دون مقابل، إلا أن إبراهيم أصر على دفع ثمن تلك القطعة من الأرض (تك 23: 2-16). فكانت تلك القصة الكاملة لامتلاك إبراهيم موطئًا

لموتاه في أرض كنعان، إن صح اعتبار مقابر الموتى ملكًا يتوارثه الأحياء ويتنازعون أملاكه؛ وهو ما يتفق مع ما تقوله أسفار العهد الجديد[7] بهذا الخصوص: "... ظهر إله المجد لأبينا إبراهيم وهو في ما بين النهرين، قبلما سكن في حاران وقال له: اخرج من أرضك ومن عشيرتك، وهلم إلى الأرض التي أريك. فخرج حينئذ من أرض الكلدانيين وسكن في حاران. ومن هناك نقله، بعد ما مات أبوه، إلى هذه الأرض التي أنتم الآن ساكنون فيها. ولم يعطه فيها ميراثًا ولا وطأة قدم ..."[8].

إذًا كانت أرض كنعان، أرض غربة إبراهيم وليست وطنه، وكانت أرض كنعان أرض الكنعانيين بشهادة العهد القديم ذاته، وعلى لسان إبراهيم (عليه السلام). ومما يؤكد تغرب إبراهيم في أرض كنعان أيضًا، ما ورد عن يعقوب في التكوين (35: 27) حيث يقول: «وجاء يعقوب إلى إسحاق أبيه إلى ممرا، قرية أربع، التي هي حبرون، حيث تغرب إبراهيم ...». وهذا اعتراف على لسان يعقوب بأن أرض كنعان، كانت أرض غربة جده إبراهيم.

ب- فترة إسحاق:

ينتقل بنا العهد القديم بعد ذلك إلى إسحاق عليه السلام وعلاقته بأرض كنعان، حيث يأتينا بحديث أسحاق إلى ابنه يعقوب عن أرض كنعان واصفًا إياها بأنها "أرض غربة"، إذ يقول: «والله القدير يباركك، ويجعلك مثمرًا، ويكثرك فتكون جمهورًا من الشعوب. ويعطيك بركة إبراهيم لك ولنسلك معك، لترث أرض غربتك التي أعطاها الله لإبراهيم» (تك 28: 3- 4). والغريب في الأمر أن الرب يأمر إسحاق ألا يتغرب في مصر، بل يتغرب كوالده في مملكة جرار لدى "أبيمالك": تغرب في هذه الأرض فأكون معك وأباركك، لأني لك ولنسلك أعطي جميع هذه البلاد، وأفي بالقسم الذي أقسمت لإبراهيم أبيك" (تك 26: 3)، رغم أن والده "إبراهيم"، وبنص العهد القديم، تغرب في "مصر" و"جرار"، وكان العهد يمنحه الأرض الواقعة بين نهري النيل والفرات (تك 15: 17- 21)، ولا يمكن أن نغفل أن الرب يوصي يعقوب فيما بعد، بأن يتوجه مع بنيه لمصر: «فقال: «أنا الله، إله أبيك. لا تخف من النزول إلى مصر، لأني أجعلك أمة عظيمة هناك» (تك: 46: 3). والحقيقة أن القارئ للروايتين يشعر بالحيرة

والارتباك من غموض سبب التحرك، حيث لا يجد خلافًا قط بين الحدثين، فلماذا يتغرب إسحاق في جرار ولا ينزل إلى مصر، ثم يطلب من يعقوب أن ينزل مصر ويعده بالإثمار هناك.

وهكذا كان حال إسحاق، كما كان حال أبيه إبراهيم من قبل غريبًا في أرض كنعان[9] ، متجولاً لم يملك فيها موضع قدم، وكانت ثروته تتركز في المواشي وما تغله الأرض التي يزرعها (تك 26: 12- 14). ولأن إسحاق لم يمتلك من الأرض شيئًا، فقد تعرض للطرد والأذى من جانب سكانها الأصليين (تك 26: 12- 17)[10].

ج- فترة يعقوب:

لم ينقض إلا جيلين حتى يعود "يعقوب" حفيد إبراهيم، بالنزوح إلى مصر. ورغم الانفصال عن أرض كنعان في عهد يعقوب، إلا أن العهد القديم يؤكد على لسان يعقوب في مصر، أنه عاش حياته في أرض كنعان متغربًا: «وسكن يعقوب في أرض غربة أبيه، في أرض كنعان» (تك 37: 1)؛ ثم يقول في معرض حديث السفر عن نزول يعقوب وبنيه لمصر: «ثم أدخل يوسف يعقوب أباه وأوقفه أمام فرعون. وبارك يعقوب فرعون. فقال فرعون ليعقوب: «كم هي أيام سني حياتك؟» فقال يعقوب لفرعون: «أيام سني غربتي مئة وثلاثون سنة. قليلة و ردية كانت أيام سني حياتي، ولم تبلغ إلى أيام سني حياة آبائي في أيام غربتهم» (تك 47: 7- 9)، أي أن يعقوب كان يرى أن حياته في أرض كنعان هي حياة غربة، فهي ليست وطنه؛ علمًا بأنه كان متغربًا أيضًا في مصر، كما يذكر ذلك سفر الخروج (23: 9): «ولا تضايق الغريب فإنكم عارفون نفس الغريب، لأنكم كنتم غرباء في أرض مصر».

لقد أكدت نصوص العهد القديم، أن يعقوب وبنيه عاشوا في أرض كنعان غرباء مستضعفين، لم يمتلكوا فيها شيئًا، وان إقامتهم في أية بقعة منها، كانت مرتبطة برضا أهلها وموافقتهم؛ ويتضح ذلك من قصة اغتصاب "دينه"، ابنة يعقوب (تك 34). ولم يحدث أن امتلك يعقوب شيئًا من ارض كنعان سوى قطعة صغيرة اشتراها بماله الخاص لينصب فيها

خيمته، ويقيم عليها مذبحًا للرب[11]. أما عن مكان ولادة بني يعقوب (بنو إسرائيل)، فقد أكد العهد القديم أنهم ولدوا جميعًا في فدان آرام (تك 35: 23- 26)، حيث مكث أبوهم "يعقوب" عشرين سنة (تك 31: 38)، ويعني ذلك أنهم ولدوا ونشأوا خارج أرض كنعان، وهو ما ينطبق على ولدي يوسف: "منسي"، و"أفرايم"، فقد أنجبهما من "أسنات" بنت "فوطي فارع" كاهن مدينة "أون" في مصر ونشأ كلاهما فيها[12].

إن تغرب الآباء العبريين كان فيما يبدو تغربًا اقتصاديًا، إما بسبب المجاعة، كما هو الحال في تغرب إبراهيم (تك 12: 10)، أو بحثًا عن حياة أفضل، كما فعل يعقوب وبنوه (تك 46: 5- 7) بدخولهم مصر حاملين ممتلكاتهم كافة، حيث انقطعت صلتهم بأرض كنعان، ومارسوا حياتهم الطبيعية في مصر لأكثر من أربعة قرون، نعموا فيها بحياة هادئة؛ وهو ما يؤكده تذمرهم على موسى حين خرج بهم من دلتا مصر إلى شبه جزيرة سيناء (خر 16: 1- 4). وهناك كثروا وأصبحوا جماعة كبيرة، كما يدل على ذلك الإحصاء الوارد في التوراة لأعداد الخارجين من مصر في عهد موسى[13]. وهو ما يعني أنهم لم يرتحلوا وفي عقولهم وقلوبهم العودة يومًا لأرض كنعان، بل على العكس كان دخولهم مصر بغية الاستقرار والإقامة، ولم يخططوا للعودة إلى أرض كنعان.

كانت هذه إذًا علاقة يعقوب بأرض كنعان إلى أن توفاه الله، حيث دفن في مغارة المكفيلة بأرض كنعان تنفيذًا لوصية قد أوصى بها بنيه (تك 5: 12- 14). فهل هذه الرسالة الخفية لأرض كنعان، وهي أن تكون مقبرة لرفات الآباء. أم أنها أرض الأحياء.

فيما يبدو، ومن خلال ما قيل عن إشكالية هذه العلاقة، أنها كانت علاقة ذات مغزى مزدوج تتمثل "بالهجرة والنزوح"، في حين كان من المفترض أن تكون علاقتهم بها بمفهوم معين "نموذج لكل الشعب"[14].

وهكذا أكد العهد القديم بشكل قاطع على العلاقة السلبية التي جمعت العبرانيين بأرض كنعان. فلم ينظر العبرانيون إليها باعتبارها الوطن، ولم يهتموا بالعيش فيها، إنما رأوها أرض غربتهم، ورأوا أن وطنهم هناك في "حاران". هذا التأكيد جاء في أكثر من مناسبة حتى وصل الأمر إلى فترة موسى (عليه السلام). ويتضح ذلك من خلال لقاء الرب بموسى لأول مرة: «ثم كلم الله موسى وقال له: «أنا الرب. وأنا ظهرت لإبراهيم وإسحاق ويعقوب بأني الإله القادر على كل شيء. وأما باسمي «يهوه» فلم أعرف عندهم. وأيضًا أقمت معهم عهدي: أن أعطيهم أرض كنعان أرض غربتهم التي تغربوا فيها» (خر 6: 2- 4). أما موسى، فلم ير أرض كنعان أبدًا، ومن ثم لا مجال للحديث عن تغربه فيها.

2- تنوع دلالة الألفاظ المستخدمة للتعبير عن السكن والغربة بالعهد القديم:

تنوع استخدام العهد القديم للألفاظ الدالة على السكن والغربة بين اتجاهين أساسيين: عبر الأول عن السكن؛ وعبر الثاني عن الغربة. فجاء الأول من الفعل "יָשַׁב" ، بمعنى: "جلس، إتكأ بكامل جسمه، عاش[15]، والفعل 'יָשַׁב' ، بمعنى: خيم، عسكر، مال وتوجه إلى"[16]، والفعل ""، 'יָשַׁב' بمعنى: "ذهب، عبر، أنتقل بقدميه من مكان لآخر"[17]. كما وتنوعت استخداماته وتصريفاته الفعلية، كما ورد في سفر التكوين (20: 1):

אַבְרָהָם אַרְצָה הַנֶּגֶב, וַיֵּשֶׁב בֵּין-קָדֵשׁ וּבֵין שׁוּר; וַיָּגָר, בִּגְרָר

«وانتقل إبراهيم من هناك إلى أرض الجنوب، وسكن بين قادش وشور، وتغرب في جرار».

وكذا الفعل "יָשַׁב"، حيث يذكر سفر التكوين (12: 8):

וַיַּעְתֵּק מִשָּׁם הָהָרָה, מִקֶּדֶם

לְבֵית-אֵל--וַיֵּט אָהֳלֹה ;בֵּית-אֵל מִיָּם, וְהָעַי מִקֶּדֶם, וַיִּבֶן-שָׁם מִזְבֵּחַ לַיהוָה ,וַיִּקְרָא

«ثم نقل من هناك إلى الجبل شرقي بيت إيل ونصب خيمته. وله بيت إيل من المغرب وعاي من المشرق. فبنى هناك مذبحا للرب ودعا باسم الرب».

وأيضًا الفعل "יָשַׁב" فقد ورد في التكوين (12: 1):

וַיֹּאמֶר יְהוָה אֶל-אַבְרָם, לֶךְ-לְךָ

מֵאַרְצְךָ וּמִמּוֹלַדְתְּךָ וּמִבֵּית אָבִיךָ, אֶל-הָאָרֶץ, אֲשֶׁר אַרְאֶךָּ

«وقال الرب لأبرام: «اذهب من أرضك ومن عشيرتك ومن بيت أبيك إلى الأرض التي أريك».

وأتى الثاني معبرًا عن الغربة مستخدمًا الفعل الأجوف "גור" والذي يعني: "سكن أو انتقل للعيش في مكان آخر"[18]؛ إذ أتت هذه اللفظة لتعني في بعض المواضع "الغربة والتغرب"، لاسيما مع إبراهيم (عليه السلام)، حيث كانت تذكر كلما ذكر تنقل إبراهيم في أرض كنعان، وفي مصر. وقد وردت نصوص كثيرة في العهد القديم تبين ذلك، منها على سبيل المثال ما ورد في سفر التكوين (12: 10):

מִצְרַיְמָה לָגוּר שָׁם, כִּי-כָבֵד הָרָעָב בָּאָרֶץ

«وحدث جوع في الأرض، فانحدر أبرام إلى مصر ليتغرب هناك، لأن الجوع في الأرض كان شديدًا».

وما ورد أيضًا في السفر نفسه (17: 8):

וְנָתַתִּי לְךָ וּלְזַרְעֲךָ אַחֲרֶיךָ אֵת אֶרֶץ מְגֻרֶיךָ, אֵת כָּל-אֶרֶץ כְּנַעַן, לַאֲחֻזַּת, עוֹלָם; וְהָיִיתִי לָהֶם, לֵאלֹהִים

«وأعطي لك ولنسلك من بعدك أرض غربتك، كل أرض كنعان ملكًا أبديا. وأكون إلههم». وكذا في (1:20):

אַבְרָהָם אַרְצָה הַנֶּגֶב, וַיֵּשֶׁב בֵּין-קָדֵשׁ וּבֵין שׁוּר; וַיָּגָר, בִּגְרָר

«وانتقل إبراهيم من هناك إلى أرض الجنوب، وسكن بين قادش وشور، وتغرب في جرار». وورد أيضًا في التكوين (21: 34):

וַיָּגָר אַבְרָהָם בְּאֶרֶץ פְּלִשְׁתִּים, יָמִים רַבִּים

«وتغرب إبراهيم في أرض الفلستيين أيامًا كثيرة». وفي التكوين (23: 4) نذكر حديث إبراهيم مع بني حث، الذين سكنوا أرض كنعان قبل مجيء العبرانيين عليها:

עִמָּכֶם; תְּנוּ לִי אֲחֻזַּת-קֶבֶר עִמָּכֶם, וְאֶקְבְּרָה מֵתִי מִלְּפָנָי

«أنا غريب ونزيل عندكم، أعطوني ملك قبر معكم لأدفن ميتي من أمامي».

وتكرر ذلك أيضًا مع إسحاق ويعقوب. ففيما يتعلق بإسحاق، نذكر مثلاً ما ورد في سفر التكوين (3:26):

גּוּר בָּאָרֶץ הַזֹּאת, וְאֶהְיֶה עִמְּךָ וַאֲבָרְכֶךָּ: כִּי-לְךָ וּלְזַרְעֲךָ,

הָאֵל, וַהֲקִמֹתִי אֶת-הַשְּׁבֻעָה, אֲשֶׁר נִשְׁבַּעְתִּי לְאַבְרָהָם אָבִיךָ

«تغرب في هذه الأرض فأكون معك وأباركك، لأني لك ولنسلك أعطي جميع هذه البلاد، وأفي بالقسم الذي أقسمت لإبراهيم أبيك».

أما فيما يتعلق بيعقوب، نذكر ما ورد في التكوين (37: 1):

מְגוּרֵי אָבִיו--בְּאֶרֶץ, כְּנָעַן וַיֵּשֶׁב יַעֲקֹב, בְּאֶרֶץ

«وسكن يعقوب في أرض غربة أبيه، في أرض كنعان»؛ وما ورد أيضًا في السفر نفسه (47: 9):

וַיֹּאמֶר יַעֲקֹב, אֶל-פַּרְעֹה, יְמֵי שְׁנֵי

מְגוּרַי, שְׁלֹשִׁים וּמְאַת שָׁנָה: מְעַט וְרָעִים, הָיוּ יְמֵי שְׁנֵי חַיַּי, וְלֹא הִשִּׂיגוּ אֶת-יְמֵי שְׁנֵי חַיֵּי אֲבֹתַי, בִּימֵי מְגוּרֵיהֶם"، «فقال يعقوب لفرعون: «أيام سني غربتي مئة وثلاثون سنة. قليلة و ردية كانت أيام سني حياتي، ولم تبلغ إلى أيام سني حياة آبائي في أيام غربتهم».

لقد رأي "رولان دوفو" (Roland Devaux) [19] أثناء مقارنته بين كلمة "גור" العبرية، وكلمة "جار" العربية، أن هناك تشابهًا بينهما. فقد كان الـ "جار" عند البدو العرب القدامي، هو اللاجئ الذي يلجأ لقبيلة طلبًا للحماية؛ وكذلك كان الـ "גור" عند بني إسرائيل، غريب يقيم بصورة دائمة وسط جماعة تقبله، ويتمتع فيها ببعض الحقوق، وكان اللفظ يطلق على أفراد أو جماعات على السواء. فكان إبراهيم غريبًا "גֵּר" في حبرون (تك 23: 4)، وكان لوط في سدوم (تك 19: 9)، وكان موسى في مديان (خر 2: 22؛ 18: 3)، وكان بنو إسرائيل ("גור" غرباء) في مصر (خر 22: 20؛ 23: 9) و (تث 10: 19؛ 23: 8)؛ بل أن موسى قد سمى ابنه "جرشوم גֵּרְשֹׁם" "، لأنه ولد عندما كان موسى نزيلاً في أرض غربته (2: 22). إلا أنه ومن المستغرب، أن بني إسرائيل عندما استقروا في كنعان، اعتبروا أنفسهم أصحاب الأرض الشرعيين أو (شعب الأرض עַם הָאָרֶץ "علمًا بأن مفهوم "شعب الأرض"، كان يشار به إلى شعوب أخرى من غير العبرانيين، فطبقاً لرواية سفر التكوين (23: 12-13)، كان المقصود بشعب الأرض "الحيثيون" من أهل "حبرون"، ولم يقصد بهم العبرانيون متمثلين بإبراهيم (عليه السلام)، الذي كان مجرد غريب يقيم في تلك الأرض (أرض كنعان)؛ ووفقًا لرواية السفر نفسه (تك 42: 6) يقصد بشعب الأرض "المصريون"، ولم يقصد به بنو يعقوب؛ وفي رواية سفر العدد (14: 9) يقصد به "الكنعانيون" سادة الأرض، ولم يقصد به بنو إسرائيل[20]. وأصبح من لم يتم استيعابهم من السكان الأصليين، سواء بالمصاهرة أو بالتدني إلى مرتبة العبودية، "جيريم

גֵּרִים"، "، وإلى هؤلاء أضيف المهاجرون؛ علمًا بأن نصوص العهد القديم تعتبر من يعيش خارج قبيلته، من بني إسرائيل، " גֵּר " (غريب).

فهناك رجل من "أفرايم" كان غريبًا في "جبعة" التي يسكنها سبط بنيامين (قض 19: 16)، وكان اللاويون بصفة عامة ضمن هذه الفئة، إذ لم تكن لهم أرض ينتمون إليها (قض 17: 7- 9؛ 19: 1)، كما أن التشريعات الخاصة بحماية المجتمع، كانت تضع "اللاويين والغرباء" "גֵּרִים" " في فئة واحدة (تث 12: 12؛ 14: 29؛ 26: 12).

وهكذا نلاحظ أن العهد القديم استخدم في نسخته العبرية الفعل " גֵּר " ليعبر عن الغربة، علمًا بأن هذا الفعل يعني في الأساس "سكن أو انتقل للعيش من مكان لآخر"، في حين استخدم الأفعال: "יָשַׁב, נָטָה, הָלַךְ" ليعبر عن السكن والاستقرار في منطقة معينة لفترة طويلة.

ويمكن من خلال ما قيل عن طبيعة العلاقة التي تربط العبرانيين بأرض كنعان، أن نتوصل إلى الاستنتاجات التالية:

1- أن أرض كنعان كانت بالنسبة للعبرانيين، منذ ظهورهم على مسرح الأحداث، أرض غربتهم، أرض غير مرحب بها وبالسكن فيها.

2- كانت علاقة العبرانيين بأرض كنعان، علاقة ذات مغزى مزدوج تتمثل بالهجرة والنزوح، ولم تكن لهم أرض استقرار وسكن دائم.

3- أن الآباء العبرانيين (إبراهيم وإسحاق ويعقوب)، لم يمتلك أي منهم شيئًا من أرض كنعان، وإن ما نجده في سفر التكوين من وعود إلهية بذلك، إنما هو من صنع محرري التوراة، الذين لم يراعوا الدقة فيما خلفوه من كتابات. فالواقع التاريخي ينفي حدوث تلك الملكية في أي وقت من الأوقات، الأمر الذي يفرض على محرري العهد القديم نفي حدوث أي وعد إلهي بتملك الأرض، إذ لو حدث مثل ذلك حسب النصوص التي ذكروها، لكان من المفترض أن تتحقق.

4- إن العلاقة بين هذه الجماعة والأرض، ليست علاقة طبيعية. فقد تم إعداد هذه الجماعة خارج أرض كنعان، وكان أصل مولدهم في آرام النهرين، وليس في كنعان، وأكثر من ذلك أن التوراة منحت في الصحراء ولم تمنح في أرض كنعان.

5- استخدم العهد القديم في نسخته العبرية، الفعل "גָּר" ليعبر عن الغربة، في حين استخدم الأفعال: "יָשַׁב, נָטָה, הָלַךְ" ليعبر عن السكن والاستقرار في منطقة معينة لفترة طويلة.

المحور الثاني- الشعوب التي استوطنت أرض كنعان قبل مجيء العبرانيين إليها في زمن إبراهيم (عليه السلام)، وخاصة (الكنعانيون):

من الأمور التي شاعت، وحرص عليها معظم المؤرخين من غير العرب، أن أرض كنعان لم تعرف الوجود العربي إلا مع الفتح الإسلامي في عهد الخليفة عمر بن الخطاب. والحق أن الكنعانيين من أوائل الشعوب التي سكنت أرض كنعان وسميت باسمهم قبل وجود العبرانيين بأزمان طويلة[21]، ذلك أن الكنعانيين، هم أحد الأجنحة الأمورية التي شكلت هجرة كبرى واحدة، وأن الاختلاف العرقي بينهم معدوم، رغم اندماج أعداد غير مؤثرة من العناصر السومرية والحورية مع الأموريين، بينما اندمجت بعض العناصر اليبوسية والحيثية بالكنعانيين؛ وإذا كان هناك ثمة اختلاف حضاري فهو ناشئ عن أن مركز الأموريين الأصلي كان في شمال سورية، ولذا تعرضوا لتأثيرات سومرية وبابلية، بينما كان مركز الكنعانيين الجغرافي في الساحل، لذلك تأثروا بالحضارة المصرية[22]. وهؤلاء الكنعانيون كانوا مثل سواهم من سكان سورية القدماء ينحدرون من جزيرة العرب[23].

فالكنعانيون إذًا، أحد الشعوب السامية التي بدأت النزوح من الجزيرة العربية في أوائل الألف الثالث ق.م، ولم ينص التاريخ على أن سورية، التي كانت تعني تقليديًا وتاريخيًا منطقة أوسع من التي تمثلها سوريا اليوم، كانت مأهولة بأحد قبل الكنعانيين، وليس هناك من الآثار ما يدل على ذلك، إذ أن الميول التجوالية للبدو قد دفعت ببعض الشعوب في فترة ما قبل التاريخ[24] إلى التحرك والانجذاب تجاه الأرض

الخصبة والمتاخمة للنيل[25]. ويستفاد من ملاحم رأس شمرا، أن الكنعانيين أقاموا دهرًا طويلاً في تلك الأرض، وأن الفضل يرجع إليهم في تخطيط أهم المدن القائمة حتى يومنا هذا مثل: بئر سبع، وأشدود، وغيرها[26].

لقد عجز المؤرخون عن تحديد زمن استيطان الكنعانيين في هذه الأرض تحديدًا دقيقًا، إلا أن أغلبهم يرون، أنه كان مع بدايات الألف الثالث ق.م؛ في حين ذهب بعض الباحثين، الذين لم يذكروا أدلة ملموسة تعزز آراءهم، أمثال، "جون برايت" (John Bright)[27]، أن يكون ذلك في الألف الربع ق.م، أو ما قبل ذلك. وهو ما ذهب إليه "ملمط מלמט[28]، في افتراض أن يكون ذلك في نهاية الألف الرابع وبداية الألف الثالث ق.م؛ بل إن البعض أرجعهم إلى ما قبل ذلك بزمن بعيد، مستندين في ذلك إلى قدم بعض المدن التي تحمل أسماء كنعانية أصيلة، لاسيما مدينة أريحا، التي تسمى "جيركو" (Jericho)[29] وبيت شان (Bet Shan)[30]، و مجدو (Megiddo)[31]، التي أرجع الآثاريون تاريخ كل منها إلى ما قبل الألف الثالث ق.م، إذ أن الحفريات التي أجريت في "تل السلطان" على مدينة "أريحا" تحديدًا، أرجعت تاريخ تلك المدينة إلى العصر الحجري الحديث، في حدود الألف السادس أو السابع ق.م؛ مما يعني، أن هذه المدينة تعد من أقدم المدن في العالم[32].

لقد كشفت تلك الحفريات عن مدينة صغيرة بنيت من الطابوق الطيني ومن الحجر، وكانت محمية بسور مدهش تم بناؤه بأحجار من النوع الثقيل. كما تم اكتشاف تماثيل لحيوانات ولألهة من الصلصال، تشير إلى ممارسة عبادة الخصوبة فيها؛ إضافة إلى العثور على جماجم بشرية وأجساد مدفونة تحت أرضيات البيوت، وهو ما يشير إلى أن هذه، كانت تخدم أغراضًا عبادية، وطقوسًا دينية. كما أظهرت تلك الحفريات مستوى التقدم الذي وصل إليه شعب هذه المدينة من حيث زراعة الأرض وتدجين الحيوانات واستخدامهم أنظمة الري المتطورة نسبيًا، ومع ذلك فإن تلك الحفريات لم تحدد هوية ذلك الشعب، الذي استوطن هذه المدينة، وفي هذا الصدد يذكر "جون برايت"[33]: "أن جيركو (أريحا)

مدهشة حقًا .. وأن شعبها أيًا كانوا، فإنهم قادوا العالم في السير باتجاه الحضارة من نحو خمسة آلاف عام قبل ظهور إبراهيم".

وهكذا، فإنه مع بدايات استقرار الكنعانيين في المنطقة التي اعتبروها وطنًا لهم، قاموا بتطويع الأرض وتدجينها وترويضها لتكون طيعة لنشاطاتهم الزراعية، كما قاموا أيضًا ببناء المدن الثابتة وأسسوا عليها حضارة قادرة على التفاعل مع الحضارات المحيطة بها، بحيث استطاع الكنعانيون امتصاص واستيعاب ما أنتجته الحضارات كمادة أولية، ثم أعادوا تصنيعها بما يضفي عليها الخصوصية الكنعانية، وهذا هو حال الأحرف الهيروغليفية والمسمارية التي أعيد إنتاجها على شكل أبجدية عالمية (الأبجدية الأوغاريتية)؛ فكانت بذلك أقدم أنواع الكتابة التي استعملت حروفًا أبجدية فقط"[34]، حيث طور الكنعانيون قبل نهاية الألف الثالث ق.م في "بيبلوس" (Byblos) كتابة مقطعية على غرار الكتابة الهيروغليفية المصرية[35]، وقد عثر عليها على التابوت الحجري لملك "جبيل" المدعو "أحيرام". ويعد هذا الإنجاز من أعظم الإنجازات والاختراعات التي قدمها الكنعانيون إلى البشرية بعد اختراع الكتابة، لأنه يسر تطابق اللغة مع الكتابة، وجعل أمم الأرض تبتكر لنفسها أبجدياتها وتكتب بها تراثها[36].

وبسبب العقلية المنفتحة على الأخر والمتسامحة معه التي امتاز بها الكنعانيون، وهو ما يتضح من خلال تعاملهم مه المهاجرين الذين عاشوا في وسطهم، لاسيما العبرانيون منهم، والذي تعكسه نصوص التوراة (تك 23: 3- 12)، حيث ذكرت تلك النصوص كرم الحيثيين لإبراهيم (عليه السلام)، بمنحه مغارة المكفيلة لدفن زوجته هاجر: وقام إبراهيم من أمام ميته وكلم بني حث قائلاً: «أنا غريب ونزيل عندكم، أعطوني ملك قبر معكم لأدفن ميتي من أمامي». فأجاب بنو حث إبراهيم قائلين له: «اسمعنا يا سيدي. أنت رئيس من الله بيننا. في أفضل قبورنا ادفن ميتك، لا يمنع أحد منا قبره عنك حتى لا تدفن ميتك». فقام إبراهيم وسجد لشعب الأرض، لبني حث، وكلمهم قائلاً: «إن كان في نفوسكم أن أدفن ميتي من أمامي، فاسمعوني والتمسوا لي من عفرون بن صوحر أن يعطيني مغارة المكفيلة التي له، التي في طرف حقله. بثمن كامل يعطيني إياها في وسطكم ملك قبر». وكان عفرون جالسًا بين بني حث

فأجاب عفرون الحثي إبراهيم في مسامع بني حث، لدى جميع الداخلين باب مدينته قائلاً: «لا يا سيدي، اسمعني. الحقل وهبتك إياه، والمغارة التي فيه لك وهبتها. لدى عيون بني شعبي وهبتك إياها. ادفن ميتك». فسجد إبراهيم أمام شعب الأرض»؛ ونتيجة لذلك التسامح، فإن معظم القادمين من الشعوب، كانوا سرعان ما يذوبون في المجتمع الكنعاني بعد أن يفرغوا كل ما في جعبتهم من فكر حضاري، بمعنى أن بلاد كنعان كانت تقوم باستيعاب كل الدماء والثقافات الجديدة في بوتقتها، وتعيد تصنيعها ضمن هويتها؛ وكان على كل قادم إلى تلك المنطقة أن يسلك أحد المسارات التالية:

– إما أن يذوب ويصبح جزءًا عضويًا في المجتمع الكنعاني الوطني، وخير مثال على ذلك جماعة "الفلست" الإيجيين الذين استوطنوا الساحل الكنعاني (خر 13: 17- 18؛ يش 13: 2- 3؛ قض 3:3)، حيث ذابوا في المجتمع الكنعاني خلال أقل من قرنين من الزمان؛ أو الحيثيون الذين يسكنون مدينة حبرون {الخليل} (تك 23: 1- 20)؛ أو الحوريون الذين يسكنون في منطقة جبل سعير، جنوب شرق كنعان (تك 36: 20، 21).

– وإما أن يتعرض للنبذ خارج حدود المنطقة.

– أو أنه يتسور ويتقوقع ضمن المجتمع الوطني، والمكان الجغرافي. وهو الطريق الذي سلكته الجماعة العبرانية[37].

أما ديانة الكنعانيين، فشأنها شأن معظم الديانات القديمة تدور حول تقديس الظواهر الطبيعية وتشخيصها بهيئة آلهة ذات صفات بشرية[38]. ومن أسماء الآلهة الكنعانية كان "هدد" (وهو إله المطر والزوابع)، ونفس هذا الإله عبد في سورية (بلاد الشام) تحت اسم "بعل هدد"، وهو "إله الطقس"، لاسيما بعد اندماج الإلهين، الكنعاني "بعل"، والآرامي "هدد"، في فترة ظهور الآراميين في الشام، باعتبارهم قوة سياسية وحضارية جديدة[39]، وعبد أيضًا الإله "إشمون" (إله الشفاء) في صيدا (صيدون) الفينيقية، إلى جانب عبادة الإلهة عشتروت التي تعد من أهم الإلاهات عند الصيدونيين (1مل 33، 11: 5)؛ ويرد "صيدون" في العهد القديم على أنه ابن كنعان البكر (تك 10: 15). وكذلك عبد

الإله "عاي" (أيا) الذي سميت مدينة "عاي" (Ai) على اسمه. أما الإله الأعلى فكان يعرف باسم "إيل"، وهو أبو الآلهة، ورئيس مجمعهم الديني، وقد أطلق الكنعانيون هذا الاسم العام على إله معين، ليصبح اسمًا خاصًا، عندما اعتبروا أحد الآلهة، إلهًا أكبر متساميًا على بقية الآلهة. وقد ورد هذا الإله باسم "آلوهو"، في كتابات آرامية اكتشفت في دويلات سورية مثل، "زنجيرلي" و "سوجين"؛ وهناك إشارات له وجدت في نقوش عربية جنوبية[40]، كما يظهر أيضًا في نصوص "رأس شمرا"[41] على أنه خالق المخلوقات[42]؛ و "إيل" هو ابن الإله "شاميم"، الذي أصبح ملكًا للآلهة بعد قتله لأبيه، وأصبح يدعى "إيل إلوهيم" أي "رب الأرباب". وتذكر الأساطير الكنعانية أن الإله "إيل" قام بالتضحية بابنه وحيده أثناء حدوث الجفاف، في سبيل والده إله السماء، لأنه ربما يشعر بالذنب، وربما دعاه لينزل المطر في هذه السنوات العجاف[43]؛ كما تذكر الأسطورة، أن الإله "إيل"، عندما بارك ابنه "كيريت" انسحب مع باقي مجموعته إلى خيامهم ومساكنهم. والكلمتان אֹהֶל (أوهل) التي تعني "خيمة"، و מִשְׁכָּן (مشكان) التي تعني "مسكن"، وردتا بالاسم والترتيب في سفر (2صم 7: 6) حيث يذكر، أن الإله كان يسكن ("בְּאֹהֶל, וּבְמִשְׁכָּן" في خيمة وفي مسكن)، في فترة التيه، حيث كان "يهوه" وشعبه يعيشان متنقلين في حياة بدوية وذلك قبل أن يبني له سليمان بيتًا (الهيكل)[44].

وقد وجدت آثار المعابد الكنعانية في أماكن مختلفة، وهي لا تخرج عن مذبح صخري قائم إلى جوار عمود أو شجرة مقدسة[45]. وقد أكد "أولبرايت" (Albright) في كتابه "آثار فلسطين"[46]، انتشار هذه المعابد في أرض كنعان منذ مرحلة العصر الحجري الحديث، أي فيما بين عامي 7000 و4500 ق.م تقريبًا. فغنه وفقًا للأساطير الكنعانية، كانت الآلهة تهبط من السماء وتحل في الأحجار والتماثيل المخصصة لها، أو في الجبال المسماة باسمها مثل: جبل حرمون (Hermon)[47]، وجبل صنين (Sannin)[48]، وغيرهما؛ حيث تركزت أماكن العبادة الكنعانية في نوعين من الأماكن: هياكل العراء؛ والأماكن المرتفعة. فكان المعبد في بدايته في الصحراء، وتمثله حجرة منتصبة تدل على الإله وخصوصًا

"إيل"، وكان المتعبدون يرون أن هذا المكان قد حلت فيه الذات الإلهية. ثم تطور المعبد إلى حجارة الأماكن المرتفعة، ثم وضعت الحجارة في غرفة مربعة لها باب واحد فقط. ثم تطور بناء هذا الصرح إلى عدة غرف، وأصبح المذبح في وسط القاعة الكبيرة[49]، وعلى المذبح يتم تقديم القرابين للآلهة، لاسيما القرابين البشرية. فقد وجدت شقفة لـ "فيلون البيلوسي"، استشهد بها المؤرخ "يوسيفوس (Eusebius)، تقول أن الفينيقيين، الذين هم من الكنعانيين، كانت لهم عادة قديمة "كانوا يتقربون بأعز أطفالهم بطريقة ملؤها الغموض"، حين كان يتهدد الشعب الخطر. ويقول "بورفيري" (Porphyry)[50]: "إن تاريخ فينيقيا الذي كتبه "سنخونياتون" (Sanchuniaton) وترجمه "فيلون البيلوسي" كان زاخرًا بالحكايات عن قرابين الأطفال. وأن من قصص العهد القديم ما يؤخذ دليلاً على فرضية القرابين البشرية، فقد استشهد البعض بقصة قربان إبراهيم (تك 22: 1- 19) على ذلك، رغم أن معنى القصة مختلف تمامًا. فعندما أمر الرب إبراهيم بتقريب ابنه، إنما كان لاختباره. وكذلك استشهدوا بما ورد في سفر الخروج (22: 28- 29): «... وأبكار بنيك تعطيني. كذلك تفعل ببقرك وغنمك. سبعة أيام يكون مع أمه، وفي اليوم الثامن تعطيني إياه»[51]. ويبدو أن هذه القرابين، لم تكن تمارس، كما يقول "دوفو"[52] إلا في عصر بعينه، وورد ذكرها لأول مرة في عصر "آحاز" (2مل 16: 3) حين غلبت التأثيرات الأجنبية على العبادات، وقد شجبها سفر الملوك الثاني (17: 3)، والتثنية (12: 31) باعتبارها عبادة وثنية. وجميع النصوص تؤدي إلى نتيجة مفادها، أن هذه العبادة قد دخلت في عصر متأخر من تاريخ بني إسرائيل، والأرجح، كما يقول "دوفو"، أنها ترجع في أصلها إلى الحضارة الكنعانية بمعناها الواسع. وإضافة إلى القرابين البشرية، كانت هناك قرابين نباتية وحيوانية تقدم في هذا المعبد.

ورغم أن الكنعانيين عبدوا آلهة مختلفة، إلا أن الإله "إيل" كان أكثر آلهتهم تقديسًا، فقد كان الكنعانيون يؤمنون بالآلهة إيمانًا عميقًا، كما يؤمنون بإله أكبر، رب الأرباب ويدعى "إيل"، وقد أطلقوا على أنفسهم "شعب إيل"، أو "شعب البعل"، ولفظة "شعب إيل"، تشير بوضوح إلى أن فكرة التوحيد

آخذة في الرسوخ لديهم[53]، بمعنى أن التصور الكنعاني للإله كان يقوم على التعددية المشوبة بالوحدانية، إذا ما قورن بالتصور العبراني، الذي يقوم على الوحدانية المشوبة بالتعددية[54].

وقد ذكر "توماس تومسون"[55]، أن لكل قوم أو مدينة في العالم القديم، إلهها الخاص بها، وكان هذا الإله هو راعيهم الشخصي، وهم شعب هذا الإله. وعادة ما يتم التعبير عن ذلك بمصطلح "إله حارس"؛ فالإله يسبغ حمايته ويهدي ويقاتل نيابة عن شعبه ويرعاهم كما يفعل كل راع صالح، ولكنه يفرض عليهم بعض المطالب. فيطالبهم بالولاء والطاعة له، أما الهزيمة والأوبئة والمجاعات، فهي عقوبات ينزلها الإله على شعبه لتخطيهم للشكل العائلي للعلاقة التي ينبغي أن تربطهم به. وهذا المفهوم الثنائي للإله باعتباره إلهًا للعدل والرعاية يسم الديانة السامية بطابع شخصي ويميزها بفضيلة الولاء.

ومثل هذه المفاهيم الدينية، هي سياق مفهوم الإله الذي يقوم عليه العهد القديم.

يبدو أن فكرة الخصوصية للإله التي وجدت عند الكنعانيين، قد أثرت في بني إسرائيل، ومن بعدهم اليهود، حيث نسبوا الإله إليهم دون باقي البشر، بعد استخدامهم لـ "يهوه"، إله بني إسرائيل القومي، كتعبير لاحق يدل على الله بصفة عامة؛ ومن ثم فإننا نستطيع القول بأن ديانة العبرانيين قد استمدت بجلاء مادة كنعانية قديمة واستخدمتها لـ "يهوه". فلقد أدى اختلاط العقائد الدينية المجاورة والوافدة والغازية مع الديانة الكنعانية إلى آثار كبيرة، يمكن أن يقال عنها إنها سلبية؛ إذ ظهرت أفكار دينية وطقوس وآلهة جديدة أدت إلى ذوبان ملامح الديانة الكنعانية في ما حولها من الأديان، خصوصًا بعد اختلاطها بديانة هؤلاء العبرانيين[56].

وبعد هذا العرض الموجز لتاريخ شعب كنعان، ننتقل في المحور التالي للحديث عن رؤية العهد القديم للشعوب التي استوطنت في تلك الأرض، في تلك الفترة التي شهدت دخول العبرانيين إلى تلك الأرض، وعن علاقة العبرانيين بتلك الشعوب.

المحور الثالث- الشعوب التي استوطنت أرض كنعان وفقاً لرؤية العهد القديم، وعلاقة العبرانيين بتلك الشعوب:

لقد أكد العهد القديم عبر سفر التكوين (12: 1- 3)، وكما سبق أن ذكرنا، أن تاريخ العبرانيين قد بدأ مع هجرة البطاركة العبرانيين من بلاد الرافدين إلى أرض كنعان، وإن لم يتحدث تاريخ بني إسرائيل عن تلك الهجرة بصورة دقيقة، على الأقل في فترة ما قبل التاريخ. وحيث أن هذه الهجرة قد حدثت في وقت ما خلال النصف الأول من الألف الثاني ق.م، حيث بدأت معها سلسلة من العلاقات المعقدة بين العبرانيين وشعوب أرض كنعان القديمة، إلا أن العبرانيين كانوا بحق، منذ بداية الألف الثاني ق.م، وحتى بداية الألف الأول ق.م عنصرًا تاريخيًا ليس له فاعلية بين مجموعة القوى التي سكنت في أرض كنعان(57).

وفي الوقت الذي يؤكد فيه العهد القديم حدوث تلك الهجرة، يؤكد أيضًا عبر أسفاره، أن أرض كنعان لم تكن أبدًا خالية؛ بل أنه أكد مررًا وتكرارًا على وجود كثير من الشعوب، زال بعضها من حركة التاريخ التي يقدمها العهد القديم ذاته، وظل كثير منها طبقًا لنفس المرويات على أرض كنعان. هذا إذا ما علمنا أن السبب في ذلك يعود إلى أن تاريخ هذه المنطقة كان وما يزال أسير مرويات العهد القديم.

ومن هذا المنطلق يتتبع الباحث هنا وجود هذه الشعوب، سواء وجودها منعزلة عن العبرانيين أو جماعة اتصلت وتفاعلت معهم؛ فالعهد القديم يؤكد منذ البداية وعلى لسان إبراهيم ذاته، أن أرض كنعان كانت تمتلئ بالشعوب، ولم تكن أرضًا قفرًا تنتظر من يعمرها.

لقد أكد العهد القديم هذا المفهوم منذ البداية، منذ أن وطأت قدم إبراهيم أرض كنعان، فيذكر سفر التكوين (12: 6): «... وكان الكنعانيون حينئذ في الأرض»، ويقول أيضًا: «... وكان الكنعانيون والفرزيون حينئذ ساكنين في الأرض» (تك 13: 7). وهو ما يؤكد رؤيتنا هنا، من أن الأرض لم تكن تنتظر من يعمرها. كما ويعج العهد القديم عبر فصوله وإصحاحاته(58) بعديد من الشعوب منها المهمشة

التي اختفت، ومنها كذلك من كان قويًا مسيطرًا لدرجة أن سيطر وتسلط على العبرانيين في أرض كنعان، وأن من العبرانيين، ومن بعدهم بنو إسرائيل، من تعالت صرخاتهم من أشكال السيطرة والتسلط التي مارستها هذه الشعوب عليهم، لاسيما الشعوب الفلستية (شعوب البحر).

إن المتابع للقصة التوراتية الواردة في الإصحاح الثاني عشر من سفر التكوين، عن الإله "إيل" والنبي إبراهيم، يجد نفسه إزاء أسرة صغيرة متواضعة تتكون من أفراد يعدون على أصابع اليد: "إبراهيم"، و"سارة"، وولداه "إسماعيل" و"إسحاق"، وأسرة ابن أخيه "لوط"، التي تتكون من زوجة وبنين. وللتدقيق، نجد أن الوعد بامتلاك أرض كنعان، اقتصر على "إبراهيم" وولده "إسحاق". رجل وزوجته جاءوا أغرابًا لينزلوا أرضًا غريبة، "أرض غربتهم" بتعبير التوراة[59]، فمنحهم "إيل" كل الأرض، وليس قطعة منها، ولا قرية، ولا حتى مدينة، إنما كل البلاد والممالك الواقعة بين نهر مصر ونهر الفرات، رغم سكانها الذين عمروها من ألوف السنين، وتم تعدادهم في نص الوعد: "القينيون، والقنزيون، والقدوميون، والحيثيون، والفريزيون، والرفائيون، والأموريون، والكنعانيون، والجرجاشيون، واليبوسيون"[60]. والواضح في رواية سفر التكوين الآنفة الذكر، أن تلك الشعوب قد قطعت شوطًا عظيمًا في سلم التطور الاجتماعي والاقتصادي والسياسي، وكونت عددًا من الممالك المستقرة، جاء ذكرها في الاصحاح الرابع عشر وغيره، مثل: مملكة جرار، وسدوم، وعمورة، وأدمة، وصبوئيم، وبالع، وعمون، وشاليم، بينما كان إبراهيم مجرد راع غريب بسيط صاحب مواشي. وعليه، فلا ضير في افتراض أن كاتب هذا الجزء من التوراة، الذي كتبه بعد زمن إبراهيم (عليه السلام) بقرون طويلة، قد كتبه بعد أن وصل بنو إسرائيل لدرجة من الاقتدار تسمح لهم بهذا الطموح. فتمت ترجمة ذلك الطموح إلى اللغة المقدسة بإعادة القرار بالاستيلاء على أرض كنعان إلى علاقة قدسية بالرب "إيل". والمسألة بذلك تصبح قدرًا مقدسًا وإلهيًا لا مجال للاعتراض عليه. بحيث تم منح الأرض بأثر رجعي للسلف البعيد إبراهيم، بينما لم يكن قد أنجب أصلاً، مع وعد آخر بأن ذلك النسل سيكون أعظم الأمم. ومن هنا تم إعادة زمن الرواية إلى عصر إبراهيم (عليه السلام) لتكتسب قدسية التقادم، وإعمالاً للمبدأ القانوني القائل بوضع اليد (المدة الطويلة المكسبة

للملكية) والذي يبدو أنه اليوم ليس سوى توارثًا عن قواعد تلك الأزمان. وكان في مقابل هذه الأعطية العظيمة التي أعطاها "إيل" لإبراهيم، التي تم فيها سلب الأرض من أصحابها لصالح الغرباء، هو أن يتم الاعتراف به إلهًا للقبيلة دون الآلهة الأخرى(61).

أما الغريب في تلك القصة، فإن الإله "إيل" الذي منح الغرباء أرض كنعان، كان إلهًا كنعانيًا أصيلاً في المنطقة.

ويطالعنا الإصحاح الرابع عشر من السفر نفسه، بمناسبة قصة غزوة "كدر لعومر"، بعدد من الشعوب الأخرى التي استوطنت أرض كنعان وهم: الرفائيون والزوزيون، والأيميون والحوريون (5- 6). وتذكر أسفار العهد القديم(62) أن مواقع هؤلاء ومدنهم كانت في شرق الأردن، والخبر يدل بطبيعة الحال على أن هذه المدن كانت قائمة قبل مجيء إبراهيم عليه السلام، وأن هذه المنطقة كانت مأهولة بشعوب شتى، ربما كان لكل منها مملكة، على غرار ما كان لسدوم وعمورة وصبوئيم وأدمة وبالع ..(63).

وفي الإصحاح السادس والثلاثين من سفر التكوين أيضًا، تكرر ذكر "الحوريين" في سياق ذرية "عيسو ابن إسحاق" وسكناها "جبل سعير"، وزعماؤها في أرض أدوم، الذي هو اسم ثان لـ "عيسو" ابن إسحاق (عليه السلام). وسعير وأدوم، هي المنطقة الجنوبية من شرق الأردن التي تقع فيها "معان" وبعض أنحاء "العقبة" و"وادي موسى".

والفقرات من (20- 30) تفيد أن هذه القبائل والزعامات، كانت موجودة حينما جاء بنو إسرائيل إلى منطقة "جبل سعير" امتدادًا لوجودهم فيها منذ حياة إبراهيم؛ إذ كشفت الوثائق الأكدية المكتوبة باللغة المسمارية عن انتشار الحوريين في أرض كنعان بأعداد كبيرة، ناهيك عن وجودهم في أماكن استقرارهم في بلاد الرافدين في الوقت نفسه، وخاصة الأقسام الشمالية الشرقية منها(64). ورغم أن بعض الباحثين، أمثال نوث (Noth)(65) يشككون بأصولهم السامية، لعدم وجود أدلة ملموسة تؤكد أصولهم، فإن اللمحة العربية القديمة بادية على الأسماء بقوة، حيث يسوغ القول إنهم أقوام هاجرت من جزيرة العرب، وحلت في جبل سعير قبل القرن العشرين ق.م بمدة، وامتد وجودها إلى زمن خروج بني إسرائيل

من مصر، لاسيما وأن هذه المنطقة متصلة بجزيرة العرب مباشرة، ولا يستبعد أن تكون كنعانية الأرومة، لأنه كانت في هذه المنطقة جماعات من الكنعانيين لهم مدنهم وممالكهم(66)، مما يعني أنهم ساميون، وأن لغتهم بطبيعة الحال، لغة سامية.

ومن جملة ما ذكره سفر التكوين، والأسفار الأخرى أيضًا، من الأقوام التي كانت تسكن أرض كنعان، كان "الحيثيون"، وقد ورد ذكرهم في الإصحاح الثالث والعشرين من سفر التكوين بأسلوب يفيد أنهم كانوا يشغلون حيزًا في أرض كنعان، حيث ورد ذكرهم بمناسبة شراء إبراهيم من "عفرون الحيثي" حقلاً ومغارة في قرية أربع لدفن سارة(67). ويذكر أن العبرانيين عندما قدموا إلى أرض كنعان، تعايشوا معهم، واستخدموهم في حروبهم وصاهروهم. فقد ذكر الإصحاح السادس والعشرين (34)، والسادس والثلاثين (1- 14)، أن "عيسو" تزوج بامرأتين منهم، اسم إحداهما "يهوديت بنت بيري الحيثي"؛ واسم الثانية "بسمة بنت إيلون الحيثي". وذكر الحيثيون أيضًا في أسفار "يشوع" والقضاة" بأسلوب يدل على أنهم كانوا ذوي شأن وحيز غرب الأردن عند مجيء بني إسرائيل بعد خروجهم من مصر؛ كما ذكروا أيضًا في سفر صموئيل الثاني (11: 3- 12، 14- 17، 26، 24، 21)، والملوك الأول (15: 5)، بمناسبة ذكر قائد منهم اسمه "أوريا الحيثي". والعهد القديم يسمي هؤلاء الحيثيين باسم " חִתִּי حتي"، ربما اقتباسًا من اسم عاصمتهم "ختوشا"(68).

يذهب معظم الباحثين إلى أن هذا الشعب من الجنس الآري، عدا مفسري العهد القديم الذين يأخذون أنساب سفر التكوين قضية مسلمة، ويقولون إن "חִתִּי حث" هو أحد أبناء كنعان بن حام بن نوح(69)، متجاهلين أصولهم الهندو أوربية(70).

ومن الشعوب الأخرى التي لم نجد لها ذكرًا في المصادر القديمة، كان "الحويون"، فقد انفرد العهد القديم بكونه المصدر الوحيد الذي يستند إليه المؤرخون في محاولتهم تحديد هوية هذا الشعب وصلاته

ببقية الشعوب واستنباط ملامح تاريخه. ولما كانت روايات التوراة في أغلب الأحيان مقتضبة وغير وافية، وفي أحيان أخري غير واضحة، فإن الغموض ما زال يكتنف تاريخ هذا الشعب.

لقد نسب الحويون في التوراة إلى كنعان (تك 10: 17)، وإن صحت هذه النسبة، فإن هذا يعني أنهم كانوا من الشعوب السامية التي استوطنت أرض كنعان قبل دخول العبرانيين إليها. كما تكرر ذكرهم في العديد من أسفار العهد القديم بما يفيد أنهم من شعوب كنعان (خر 3: 17؛ يش 9: 1، وغيرهما). أما مناطق إقامتهم، فإنه وفقًا للعهد القديم، سكن فريق منهم في شكيم في عصر يعقوب (تك 33: 18؛ 34: 2) وظل تأثيرهم في المدينة عدة أجيال حتى دخول بني إسرائيل أرض كنعان (قض 9: 28)؛ بينما سكن فريق آخر منهم في جبعون[71] وجوارها، حيث حصلوا على عهد سلام من يشوع عند غزوه للأرض (يش 9)، كما كان لهم مقر واسع، ربما هو مقرهم الرئيس، في سفح جبل لبنان، من جبل حرمون إلى مدخل حماة (يش 11: 3؛ قض 3:3)، وكانت لهم في هذه المناطق قرى يملكونها حتى وقت متأخر من عصر داود (2صم 24: 7)[72].

ويحدثنا العهد القديم في فترة يعقوب عن الحويين أيضًا، من خلال قصة اغتصاب "دينة بنت يعقوب" من قبل "شكيم بن حمور الحوي" رئيس البلد (تك 34). ولو توقفنا قليلاً عند هذه القصة لوجدنا المبالغة بادية في وصف ما فعله "لاوي، وشمعون" أبناء يعقوب من قتل جميع الذكور، وسبي الطفال والنساء، ونهب جميع الأموال، واستياق جميع المواشي[73]. وينقض ذلك ما حكاه الإصحاح من خوف يعقوب من أهل المنطقة بقوله: «كدرتماني بتكريهكما إياي عند سكان الأرض الكنعانيين والفرزيين، وأنا نفر قليل. فيجتمعون على ويضربونني، فأبيد أنا وبيتي» (تك 34: 30)، مما حدا به إلى الفرار منها إلى محل بعيد غير مأهول بالحويين الذين يسكنون منطقة "شكيم" (نابلس).

ونضيف، أن اسم "الحوي" يذكر هنا لأول مرة، ثم ذكر في (تك 36: 2) للإشارة إلى اسم إحدى زوجات "عيسو" المدعوة "أهليبامة بنت عانة بنت صبعون الحوي"، وهو ما يدل على أنه كان في غرب الأردن أرومة تسمى "الحويون". والذي يطالع السفر نفسه (تك 36: 20، 29)، يجد تكرارًا لذكر

المدعو "صبعون" لكنه ينسب في هذه الفقرات إلى الحوريين. وهذا يقودنا إلى احتمال أن قسمًا من الحوريين، يعرف بالحويين.

على أية حال، فإنه بالعودة إلى ما ذكره سفر التكوين (12: 6) من خبر نزول إبراهيم لأول الأمر عند شكيم: «... وكان الكنعانيون حينئذ في الأرض»، يتضح أن "الحويين" كانوا من شعوب أرض كنعان(74).

ومن الأقوام السامية التي استوطنت أرض كنعان قبل مجيء العبرانيين، وتردد اسمهم في أغلب الأحيان بصيغة الجمع، "الجرجاشيون"(75)، وقد ورد ذكرهم في عدد من أسفار العهد القديم (76)، حيث اعتبروا من سلالة كنعان (تك 10: 16)، ولم يحدد العهد القديم مناطق إقامتهم في ارض كنعان، إلا أن هناك اعتقادًا، أنهم كانوا يقيمون في المنطقة الجبلية المحيطة بمدينة القدس، وأن لهم صلة باليبوسيين سكان هذه المدينة التي تعرف باسم يبوس.

وكان المصريون قد أشاروا إلى الجرجاشيين باسم "كركاسي"، حيث ورد ذلك في قائمة كشفت عنها في مصر القديمة تضم أسماء الشعوب التي وقفت إلى جانب الحثيين في حربهم ضد الملك المصري رعمسيس الثاني (1299- 1232 ق.م)(77).

تكرر ذكر "الفريزيين" في الإصحاح الرابع والثلاثين من سفر التكوين (30)، على نحو يدل على أنهم من سكان منطقة شكيم. كما وتكرر أيضًا ذكر "اليبوسيين" في سفر يشوع (63، 15: 8؛ 28، 18: 16)، على نحو يدل على أنهم كانوا يسكنون مدينة أورشليم (القدس).

وهكذا، لم تكن أرض كنعان خاوية تنتظر من يسكنها أو يعمرها، بل على العكس كانت أرضًا مسكونة بالعديد من الشعوب التي ظلت تسكنها حتى بعد مجيء العبرانيين إليها، وباعتراف العبرانيين أنفسهم؛ هذا إذا ما علمنا بأن نزول الآباء العبريين الأول إلى أرض كنعان، وكما يبدو من التوراة، لم يكن له أي أثر سياسي يذكر. فقد ظلوا كما كانوا بدوًا رحلاً يعيشون على هامش المدن والبلدان الكنعانية، التي كان يسكنها أهل البلاد الأصليين. كما ويبدو أن تلك الجماعة، كانت قد تعلقت تعلقًا

قويًا بالطقوس الدينية، لاسيما في الفترة التي سبقت إطلاق اسم "عبرانيون" عليهم، أي منذ وجودهم في بلاد الرافدين، حين أضحت حياتهم لا تستقيم مقدسات مادية ملموسة. فكانت إقامتهم في كنعان تقترن دائمًا بقصص عن بقاع أصبحت مقدسة بسبب تجلي بعض الملائكة، أو حدوث معجزة من المعجزات أو خارقة من الخوارق، وكانوا عادةً لا يختلقون قدسية جديدة لأماكن غير معروفة، إنما يقدسون أماكن قدسها من قبلهم وثنيون، ولم يتخذ أحد منهم موقفًا معاديًا منها، فأقاموا فيها معبدًا أو مذبحًا للقرابين، وكانت هذه البقاع المقدسة، تعرف بصخرة تشرف عليها، أو قبر يقوم فيها أو أجمة أو غابة أو حرش. وأحيانًا في المناطق الصحراوية كإقليم النقب، كان المكان المقدس يحيط ببئر مثل "بئر سبع" أو عين ماء مثل "عين قديس"[78] التي تسمى بالعبرية "קֶדֶשׁ" أي "المقدسة"[79]؛ وظلوا على مدى تاريخهم الطويل يلعبون دور المتلقي، ولم يكونوا في يوم من الأيام أصحاب حضارة متميزة يمتد تأثيرها إلى جيرانها[80] كونهم قوم رحل، ولم يتمكنوا من الارتباط بالأرض كونهم تحولوا فيما بعد نحو التجارة[81]، ولم تخلص أرض كنعان لهم في أي ظرف، حيث ظل سكانها القدماء فيها، بعد إجلاء بني إسرائيل المرة بعد المرة، باعتبارهم أصحاب البلاد الأصليين[82].

جدير بالذكر أن العهد القديم قد لعن كنعان (تك 9: 20- 27)، واتهمه بالغش (هو 12: 8) لا لشيء إلا لأن العبرانيين احتلوا أرض كنعان وأصبحوا أعداء للكنعانيين، فكان لابد من وصمهم دائمًا بالعار والخطيئة. وهو نهج سار عليه محررو العهد القديم في علاقتهم مع من جاورهم ومع من حاربهم أو عاداهم. وفي هذا الصدد يذكر "توميسون"[83]، أنه في قصص سفر التكوين وسفر يشوع، يلعب الكنعانيون الدور الذي يلعبه الفلستيون في أسفار القضاة وصموئيل الأول والثاني، بل والدور الذي تلعبه مملكة إسرائيل نفسها في سفر الملوك الثاني باعتبار أن جميع هؤلاء أعداء لـ "يهوه".

فعند إمعان النظر في مسلسل اللعنات التي أوردتها التوراة، والتي تبدأ من قايين إلى حام إلى كنعان، فإننا نراها وكأنها تستمر إلى إسماعيل. إذ أن محرري التوراة قد همشوا كل هؤلاء، لأنهم أرادو إبعاد كل ما

هو خارج نسلهم، أو كل ما يشوب نسلهم، بدءًا من آدم. وهكذا وصموهم بالخطيئة، وعلقوا بهم لعنات متعددة منها، لعنة القتل: إذ اعتبروا الآخرين من نسل قايين (קַיִן) بتعبير التوراة، الذي قتل أخاه هابيل (הֶבֶל) في القصة المعروفة والواردة في الإصحاح الرابع من سفر التكوين، حيث تورد التوراة أن "قايين" كان عاملاً في الأرض، وأن "هابيل كان راعيًا للغنم. وأن قايين، قد هرب بعد فعلته هذه ليسكن في "نود" الواقعة شرقي جنة عدن، التي أصبحت مأوًا ومسكنًا للأشرار (تك 4: 2- 16). ووفقًا لاعتقادات الجغرافيين واللاهوتيين، فإن موقع جنة عدن إما أن يكون في القسم الجنوبي من بلاد الرافدين[84]، أو الأجزاء الداخلية من لبنان، منطقة البقاع تحديدًا، ويستدل على ذلك من قبور "هابيل" و "قايين" المقامة في المحل المشار إليه، رغم عدم وجود ما يؤكد أنهما مدفونان بالفعل في هذه القبور[85]. وبالتالي فإن جميع الساكنين شرقي هذا المكان، سواء شرقي بلاد الرافدين، أو شرقي لبنان، يكونون من الأشرار؛ أما نسل العبرانيين، وفقًا لنهج محرري العهد القديم، فإنه يعود إلى الرجال الصالحين القدماء الذين يرجعون إلى نسل الابن الثالث لآدم، "شيث" مثل: "أنوش، قينان، مهللئيل، يارد، أخنوخ، متوشالح، لامك، نوح"[86] كما يفهم من هذه القصة أيضًا، أنها ترمز إلى العداوة القديمة بين المزارعين والرعاة، والتي عكسها المحرر التوراتي في هذه القصة، وهي تعني هنا العداوة بين الكنعانيين المزارعين، وبين العبرانيين الرعاة[87].

كما علقوا بهم لعنة الخطيئة؛ فاعتبروا "كنعان" ملعونًا لأن حام، أبا كنعان، قد شاهد عورة أبيه نوح (تك 9: 18- 27)؛ بل إنهم استبعدوا الكنعانيين من نسل سام ونسبوهم إلى حام، رغم انتساب لغتهم إلى اللغات السامية.

وعلقوا بهم الخطايا الجنسية؛ على اعتبار أن "بني عمون" و"مؤاب"، كانوا ثمرة الخطيئة الجنسية الناتجة عن مضاجعة لوط لابنتيه (تك 19: 30- 38).

وكذلك لعنة اللون وشكل الجسد؛ التي جسدها محررو العهد القديم في شخصية "عيسو" بدافع العنصرية التي لها علاقة باللون، كون عيسو «أحمر، كله كفروة شعر» (تك 25: 24)، أو بمفهوم "الشعب الأحمر" لتبرير بغضهم للأدوميين، نسل عيسو الذين سكنوا جبل سعير (تث 2: 4، 12، 22)؛ وهو ما تفضحه نصوص العهد القديم الصريحة، فقد ورد في سفر ملاخي (1: 2- 5): «أحببتكم، قال الرب. وقلتم: بم أحببتنا؟ أليس عيسو أخا ليعقوب، يقول الرب، وأحببت يعقوب وأبغضت عيسو، وجعلت جباله خرابًا وميراثه لذئاب البرية؟ [4] لأن أدوم قال: قد هدمنا، فنعود ونبني الخرب. هكذا قال رب الجنود: هم يبنون وأنا أهدم. ويدعونهم تخوم الشر، والشعب الذي غضب عليه الرب إلى الأبد. فترى أعينكم وتقولون: ليتعظم الرب من عند تخم إسرائيل».

وضعة النسب؛ التي نسبوها لـ "إسماعيل"، على اعتبار أنه ابنًا لجارية مصرية، لذا تم استبعاده، واستبعاد نسله من بعده (أي العرب)، من العهود التي قطعها الرب مع الآباء، لاسيما الوعد بتملك أرض كنعان ووراثتها (تك 21: 9- 13)[(88)].

وعلى أية حال، فقد أكد العهد القديم عبر أسفاره، وفي كل فصوله، وبما لا يدع مجالاً للشك عدة نقاط يمكن إجمالها فيما يلي:

1- إن العبرانيين لم يأتوا إلى أرض كنعان، أرض الميعاد، ليجدوها خاوية تنتظرهم كي يعمروها.

2- إن أرض كنعان كان يسكنها العديد من الشعوب، استمر منها من استمر وسقط من محرري العهد القديم من سقط.

3- سكن الكنعانيون أرض كنعان، وتسمت باسمهم قبل أن يحل عليها العبرانيون الرحل؛ واستمروا بالسكن فيها حتى بعد مجيء العبرانيين إليها، فقد كانوا هم أهل البلاد الأصليين.

نتائج البحث

وبعد توصل الباحث للنتائج الآتية:

1- يؤكد العهد القديم بشكل قاطع على العلاقة السلبية التي جمعت العبرانيين بأرض كنعان، فلم ينظر العبرانيون لها باعتبارها الوطن ولم يهتموا بالعيش فيها؛ وإنما رأوها أرض غربتهم، ورأوا وطنهم هناك في حاران.

2- كانت أرض كنعان أرض غريبة تغرب فيها بنو إسرائيل؛ حيث رأوا أرض كنعان أرضًا غريبة عليهم، ونظروا لبلاد الرافدين ثم إلى مصر باعتبارها وطنهم، لقد شهد العهد القديم بشهادات مؤكدة قاطعة سواء بلسان هؤلاء الآباء أو بحديث الرب لهم أن أرض كنعان ليست إلا أرض غربتهم، وأن تغربهم فيها كان في مقابل منحة ربانية عظيمة تمثلت في الإكثار والثراء، وأنهم لم يتمسكوا بها، بل كانوا على استعداد دائم لهجرها وهو ما حدث على عهد كل من إبراهيم ويعقوب.

3- يؤكد العهد القديم عبر أسفاره أن أرض كنعان لم تكن أبدًا خالية، وأكد مرارًا وتكرارًا على وجود كثير من الشعوب زال بعضها من حركة التاريخ التي يقدمها لنا؛ ذلك أن تاريخ هذه المنطقة كان وما زال أسير مرويات العهد القديم، وظل كثير منهم طبقًا لنفس المرويات على أرض كنعان؛ إذًا لم تكن أرض كنعان خالية في فترة الآباء، بل كانت تكتظ بالشعوب بشهادة العهد القديم.

4- أكد البحث أنه لا توجد ثمة علاقة بين أرض كنعان واليهود إلا في مخيلتهم، وأن استخدام فكرة الأرض الموعودة، لم يكن إلا وسيلة من وسائل الحشد الديني، كما فعلت الحملات الصليبية من قبل.

5- أن ديانة العبرانيين قد استمدت بجلاء مادة كنعانية قديمة واستخدمتها في فترات لاحقة لإله بني إسرائيل "يهوه". فقد أدى اختلاط العقائد الدينية المجاورة والوافدة والغازية مع الديانة الكنعانية إلى آثار كبيرة، يمكن أن يقال عنها إنها سلبية؛ إذ ظهرت أفكار دينية وطقوس وآلهة جديدة أدت إلى ذوبان ملامح الديانة الكنعانية في ما حولها من الأديان، خصوصًا بعد اختلاطها بديانة العبرانيين.

قائمة المراجع

(1) تك 21: 34؛ وقارن أيضًا: تك 21: 3.

(2) الشامي (رشاد)، اليهود واليهودية في العصور القديمة بين وهم الكيان السياسي وأبدية الشتات، العدد: (1)، المكتب المصري لتوزيع المطبوعات، الطبعة الأولى، القاهرة، 2001، ص 34.

(3) مارجوليز (ماكس. ل)؛ وماركس (الكسندر)، تاريخ الشعب اليهودي، الجزء الأول، الطبعة الخامسة، نيويورك، 1962، ص 27.

(4) تك 31: 19.

(5) دروزة (محمد عزة)، تاريخ بني إسرائيل من أسفارهم، الجزء الأول، مطابع شركة الإعلانات الشرقية، القاهرة، (د. ت)، ص 54.

(6) علي (فؤاد حسنين)، إسرائيل عبر التاريخ (في البدء)، دار النهضة العربية، القاهرة، (د.ت)، ص 54- 55.

(7) أعمال الرسل 7: 2- 5.

(8) عبد الوهاب (أحمد)، رسالة من التوراة إلى مؤتمر السلام إبطال مزاعم إسرائيل الدينية والتاريخية في فلسطين، مكتبة التراث الإسلامي، القاهرة، (د. ت)، ص 36.

(9) تك 35: 27.

(10) عبد الوهاب، رسالة من التوراة إلى مؤتمر السلام إبطال مزاعم إسرائيل الدينية والتاريخية في فلسطين، ص 37.

(11) المرجع السابق، ص 38- 39؛ انظر: (تك 33: 19- 20).

(12) سوسة، العرب واليهود في التاريخ حقائق تاريخية تظهرها المكتشفات الآثارية، العربي للإعلان والنشر والطباعة، الطبعة الثانية، (د.ت)، ص 524. انظر: (تك 41: 50- 52).

(13) حسن (محمد خليفة)، عروبة فلسطين والقدس في التاريخ القديم، مركز زايد للتنسيق والمتابعة، الإمارات العربية المتحدة، 2002، ص 35. انظر: خر 12: 37- 40. ومن الجدير بالذكر، أن هذا الإحصاء للخارجين من مصر بصحبة موسى، لم يكن يقتصر فقط على بني إسرائيل، فقد شمل جماعات من غير بني إسرائيل.

(14) الشامي، اليهود واليهودية في العصور القديمة بين وهم الكيان السياسي وأبدية الشتات، ص 35.

(15) **אבן שושן (אברהם), המלון החדש, כרך שלישי, הוצאת קרית ספר בע"ם, ירושלים, 1979, עמ' 997.**

(16) **שם, כרך רביעי, עמ' 1656.**

(17) **שם, כרך שני, עמ' 527.**

(18) **שם, כרך ראשוני, עמ' 321.**

(19) بنو إسرائيل مؤسساتهم وتشريعاتهم في ضوء العهد القديم، ترجمة: عبد الوهاب علوب، المجلد الأول، سلسلة الدراسات الدينية والتاريخية، العدد: (42)، مركز الدراسات الشرقية، جامعة القاهرة، 1431هـ- 2010م، ص 76، 121- 122.

(20) دوفو، بنو إسرائيل، المجلد الأول، ص 115.

(21) **שטיינברג(יהושע), מלון התנך עברית וארמית, משפט האורים, הוצאת יזרעאל, תל-**

انظر أيضا:

Noth(Martin), The History of Israel, Adam and Charles Black, London, 1965,p.7-8.

(22) السعد (جودت)، أوهام التاريخ اليهودي، الأهلية للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، عمان، 1998، ص 37؛ وانظر أيضًا: حتى (فيليب)، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ترجمة، جورج حداد، وعبد الكريم رافق، الجزء الأول، دار الثقافة، بيروت، 1957، ص 85.

(23) ناجي (سليمان)، اليهود عبر التاريخ، دار قتيبة للطباعة والنشر، الطبعة الأولى، دمشق- بيروت، 1428هـ- 2007م، ص 17؛ وانظر أيضًا: ولفنسون (إسرائيل)، تاريخ اللغات السامية، مطبعة مصر، الطبعة الأولى، 1929، ص 57.

(24) "ما قبل التاريخ"، هو تعبير زمني اصطلاحي مرن، ويطلق عادة على كل الأزمنة السحيقة، التي سبقت عصور اهتداء الأمم القديمة إلى الكتابة، وإلى تكوين القوميات الكبيرة والوحدات السياسية المستقرة. انظر: صالح، الشرق الأدنى القديم، ص 29.

(25)Kent (Charles Foster), A History Of The Hebrew People From The Settlement In Canaan To The Division Of The Kingdom, Charles Scribner´s Sons, New York, 1929, p. 34.

(26) ظاظا (حسن) وآخرون، الصهيونية العالمية وإسرائيل، القاهرة، 1971، ص 21- 22.

(٢٧) A History of Israel, p.34.

(٢٨) מלמט(אברהם) ואחרים, תולדות עם ישראל, בעריכת ח.ה. בן- ששון , הוצאת דברי תל אביב , תשכייט , 1969, עמ' 13.

(29) أريحا (جيركو)، مدينة كنعانية تعرف حاليًا بـ"تل السلطان"، وتقع إلى جانب بلدة أريحا الحديثة، التي تدعى الآن "الريحا"، غربي نهر الأردن. كشفت الحفريات الآثارية فيها عن منشآت سكنية ترقى إلى الألف السابع ق. م. كما تم اكتشاف أسوار أريحا، التي سقطت في أيام يشوع (يش 6: 4- 20)، والخراب الذي حل بالمدينة، حيث اسودت جدرانها من الحريق، ويعتقد أن ذلك الخراب قد حدث بين عام 1400 و1350 ق.م. للمزيد من التفصيل انظر: قاموس الكتاب المقدس، تأليف نخبة من الأساتذة وذوي الاختصاص ومن اللاهوتيين، مجمع الكنائس في الشرق الأوسط، دار مكتبة

العائلة، الطبعة الخامسة عشر، بيروت– لبنان، 2011، ص 58– 59؛ وانظر أيضًا: عبودي (هنري. س)، معجم الحضارات السامية، جروس برس، لبنان، الطبعة الثانية، 1411هـ– 1991م، ص 72– 73.

(30) بيت شان، مدينة كنعانية تقع غربي نهر الأردن، اسمها القديم "أفراته"، واسمها الحالي "تل الحصن" بالقرب من "بيسان"؛ وفيها آثار متراكمة يعود أقدمها إلى الألف الرابع ق.م. وعند احتلال بني إسرائيل لأرض كنعان، كانت هذه المدينة من حصة سبط يساكر في بادئ الأمر، ثم ألحقت بأملاك سبط منسى (يش 17: 11؛ 1 أخ 7: 29). المرجع السابق، ص 203؛ 251.

(31) مجدو، مدينة كنعانية تقع حاليًا في "تل المتسلم" جنوب شرق حيفا. كشفت الحفريات الآثارية في تل المتسلم، عن عدة طبقات من الأماكن التي كانت آهلة بالسكان، يرجع تاريخ بعض منها إلى الألف الرابع ق.م؛ كما تم اكتشاف نقوش تعود إلى القرن الرابع عشر ق.م، حيث تظهر هذه النقوش ثقافة الكنعانيين ومدنيتهم. وتم الكشف أيضًا عن سرداب تم شقه في الصخر، ليصل إلى نبع ماء، حيث يظهر ذلك مهارة الكنعانيين الهندسية. انظر: قاموس الكتاب المقدس، ص 841.

(32)Bright (john), A History of Israel, Printed By Offset In Great Britain, London, 1966, p. 19

وانظر أيضًا: بوست (جورج)، قاموس الكتاب المقدس، المطبعة الأمريكانية، بيروت، المجلد الأول، 1894، ص 59.

(33) Ibid, pp. 19- 20.

(34) برستيد (جيمس هنري)، انتصار الحضارة (تاريخ الشرق القديم)، ترجمة: أحمد فخري، المركز القومي للترجمة، العدد: (1809)، القاهرة، 2011، ص 206.

(35)Bright, A History of Israel, p. 34.

(36) الماجدي (خزعل)، المعتقدات الكنعانية، سلسلة التراث الروحي للإنسان، العدد: (5)، دار الشروق للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، عمان، 2001، ص 41.

(37) الصمادي (إسماعيل ناصر)، التاريخ التوراتي.. والتاريخ (التاريخ التوراتي المزيف بين إسرائيل الكنعانية وإسرائيل العبرية وإسرائيل الصهيونية)، المجلد الثاني، دار علاء الدين للنشر والتوزيع والترجمة، الطبعة الثانية، سورية- دمشق، 2008، ص 25- 26.

(38) تجدر الإشارة هنا، إلى أن محرري التوراة، قاموا أيضًا بتجسيد الرب، من خلال ذكرهم أن الإنسان خلق على صورة الرب. انظر: تك 1: 26.

(39) Cassuto (U.), The Goddes Anath, Canaanite Epics of The patriarchal, Age, Transl. by Israel Abrahams, p59.

وانظر أيضًا: بباوي (وليم وهبه)، دائرة المعارف الكتابية، الجزء الثامن، الطبعة الثانية، دار الثقافة، القاهرة، 2008، ص 138؛ الماجدي، المعتقدات الكنعانية، ص 73، 47.

(40) للمزيد من التفصيل

עיין: אנציקלופדיה מקראית, כרך''א, מיסודם של מוסד ביאליק של הסוכנות היהודית לארץ- ישראל ובית הנכות לעתיקות היהודים של האוניברסיטה העברית, ירושלים, תשכ"ג(1963), עמ' 302- 304؛

وانظر أيضًا: عبودي، معجم الحضارات السامية، ص 182.

(41) رأس شمرا، هو موقع أثري تم اكتشافه صدفة عام 1928 في مدينة أوجاريت السورية، التي يرجع تاريخها إلى العصر الحجري القديم، حوالي العام 6700 ق.م. اكتشف فيها معبدان، أحدهما للإله بعل؛ والآخر للإله "داجان" يعودان إلى العصر البرونزي الوسيط (2000- 1600 ق.م)، كما تم اكتشاف، نصب مزخرفة عليها رسوم آلهة، تعود إلى القرنين الثامن عشر والسابع عشر ق.م. وقد ورد ذكر الإله "إيل" في نصوص أوجاريت بألقاب عدة منها: "أبو البشر"، و"خالق الخلق"، و"الملك"،

و"الثور"، وغيرها. للمزيد من التفصيل انظر: عبودي، معجم الحضارات السامية، ص 163- 167، 182.

(42) Cassuto, p. 54.

(43) الماجدي: المعتقدات الكنعانية، ص 95، 115؛ وانظر أيضًا: السعد، أوهام التاريخ اليهودي، ص 37.

(44) فيروللو (شارل)، أساطير بابل وكنعان، ترجمة: ماجد خير بك، 1990، ص 70.

(45) قارن ذلك فيما يتعلق بإقامة إبراهيم مذبحًا للرب تحت بلوطات "مورة" (تك 12: 6- 9).

(46) ترجمة: زكي إسكندر، محمد عبد القادر محمد، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية لجنة الخبراء، (الكتاب الحادي عشر)، مصر، 391هـ- 1971م، ص 65- 66.

(47) جبل حرمون، هو جبل على الحدود بين لبنان وسورية الحالية. يدعى في التوراة "سريون" (تث 3: 9)، وكان هذا الجبل مركز عبادة "بعل حرمون" وذلك حتى زمن طويل لاحق لكتابة أسفار العهد القديم. للمزيد من التفصيل انظر: موسوعة الكتاب المقدس، دار منهل الحياة، لبنان، 1993، ص 120؛ وانظر أيضًا: عبودي، معجم الحضارات السامية، ص 350.

(48) جبل صنين، هو أحد جبال سلسلة لبنان الغربية، وقد وجد على إحدى قممه آثار بناء مربع لعله من آثار الفينيقين انظر: عبودي، معجم الحضارات السامية، ص 551.

(49) الماجدي: المعتقدات الكنعانية، ص 236، 237.

(50) دوفو، بنو إسرائيل وتشريعاتهم في ضوء العهد القديم، المجلد الثاني، ص 734.

(51) قارن أيضًا: خر 13: 11- 15؛ 34: 19- 20.

(52) بنو إسرائيل مؤسساتهم وتشريعاتهم في ضوء العهد القديم، المجلد الثاني، ص 729، 730، 733.

(53) تجدر الإشارة إلى أن بعض الباحثين أمثال: "محمد عزة دروزة" استدل على أن فكرة التوحيد كانت قائمة في أرض كنعان قبل قدوم إبراهيم إليها، من خلال كلمة "كاهن" التي وصف بها "ملكي صادق" ملك "شاليم" (تك 14: 18- 20)، والتي تعني النبوة، أو ما مؤداها. والباحث هنا لا يتفق مع هذا الاستدلال، فأين فكرة التوحيد فيما ذهب إليه "دروزة"، فكلمة "كاهن"، كانت تطلق على الشخص المخصص لتقديم الذبائح لأية آلهة كانت، باعتباره خادم دين، لاسيما وأن ذلك كان قبل تلقي موسى للشريعة في سيناء. وبالتالي، فإن كلمة "كاهن" لا تعني بالضرورة، أنها تدل على التوحيد أو حتى على النبوة. انظر: دروزة، ص 44.

(54) عزيز (كارم محمود)، أساطير التوراة الكبرى وتراث الشرق الأدنى القديم، دار الحصاد للنشر والتوزيع والطباعة، الطبعة الأولى، دمشق، 1999، ص 245.

(55) أسفار العهد القديم في التاريخ اختلاق الماضي، ترجمة: عبد الوهاب علوب، المجلس الأعلى للثقافة، المشروع القومي للترجمة، العدد: 185، القاهرة، 2000، ص 213.

(56) الماجدي، المعتقدات الكنعانية، ص 244، 245.

(٥٧) מלמט ואחרים, תולדות עם ישראל, עמ' 9.

وانظر ايضًا: Bright, A History of p. 17. lsrael,

(58) انظر على سبيل المثال ما ورد في سفر التكوين 15: 18- 21؛ 18، 15، 26: 14؛ 34: 30؛ وسفر الخروج 17، 3: 8؛ 13:7.

(59) تك 17: 8.

(60) تك 15: 18- 21.

(61) القمني (سيد)، إسرائيل التوراة التاريخ التضليل، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، 1998، ص 119- 120.

(62) انظر تك 14: 5- 6؛ 36: 20، 21، 29، 30؛ تث 2: 11، 20، 21؛ وغيرها.

(63) دروزة، تاريخ بني إسرائيل من أسفارهم، ص 38.

(64) N0th, p.25.

(65) Ibid, p 25.

(66) دروزة، ص 39- 40.

(67) تك 23: 4.

(68) ختوشا، هي العاصمة الحيثية، التي تسمى حاليًا "بوغاز كوي" (قرية المضيق)، وتقع شرقي العاصمة التركية "أنقرة"، انظر: إسماعيل (فاروق)، مراسلات العمارنة الدولية (وثائق مسمارية من القرن 14 ق.م)، سلسلة دراسات آثارية، العدد (4)، إنانا للطباعة والنشر، الطبعة الأولى، دمشق، 2010، ص 209.

(69) انظر: تك 10- 15.

(70) عيسى (حسن عبيد)، التآمر اليهودي على بلاد الرافدين حتى سقوط بابل عام 539 ق.م دراسة تحليلية، بيت الحكمة، الطبعة الأولى، بغداد، 2002، ص 39؛ وانظر أيضًا: دروزة تاريخ بني إسرائيل من أسفارهم، ص 46، 47.

(71) جبعون، مدينة كنعانية تقع على قمة هضبة، شمال غربي أورشليم (القدس)، وتعرف حاليًا باسم "قرية الجيب". للمزيد من التفصيل انظر: موسوعة الكتاب المقدس، ص 246.

(72) المرجع السابق، ص 239.

(73) تك 34: 25- 29.

(74) دروزة، تاريخ بني إسرائيل من أسفارهم، ص 63، 64- 65.

(75) ورد اسم الجرجاشيون بصيغة المفرد (جرجاش) مرة واحدة فقط، وذلك في سفر التكوين 10: 16؛ بينما ورد بصيغة الجمع "جرجاشيون" مرات عديدة. انظر: تك 15: 21؛ تث 7: 1؛ يش 3:

10؛ 24: 11؛ نح 9: 8. و "الجرجاشيون"، من القبائل الكنعانية التي نزلت بلاد كنعان، وكانت منازلهم تقع شرقي بحيرة طبرية وتمتد إلى الجليل والكرمل. وقد نسبت بحيرة طبرية إليهم حتى أنها دعيت باسم "بحيرة الجرجشيين".

https://sites.google.com/site/alwantef/home/zawyte-altarykh/altarykh-alqdym/alsamywn-1

(76) انظر تك 10: 16؛ 15: 21؛ تث 7: 1؛ يش 3:10؛ 24: 11؛ 1 أخ 1:14؛ وغيرها.

(77)https://sites.google.com/site/alwantef/home/zawyte-altarykh/altarykh-alqdym/alsamywn-1

(78) "عين قديس"، هي إحدى أكبر العيون المنتشرة في الواحة المعروفة باسم "واحة قادش برنيع"، في شمالي شبه جزيرة سيناء. ولفظة "قادش"، تعني "مقدس"، وكانت تطلق على عدة أماكن في أرض كنعان. وهو ما يعني، أن المكان كان فيه يومًا ما، نوع من المعابد أو المقادس. للمزيد من التفصيل، فيما يتعلق بهذه المقادس، انظر: بباوي، دائرة المعارف الكتابية، الجزء السادس، ص 153- 156.

(79) ظاظا (حسن)، الساميون ولغاتهم تعريف بالقرابات اللغوية والحضارية عند العرب، مكتبة الدراسات اللغوية، العدد: (3)، دار القلم- دمشق، الدار الشامية- بيروت، الطبعة الثانية، 1410هـ-1990، ص 64- 65؛ وانظر أيضًا: دوفو، بنو إسرائيل، المجلد الثاني، ص 491.

(80) عزيز (كارم محمود)، أساطير التوراة الكبرى وتراث الشرق الأدنى القديم، دار الحصاد للنشر والتوزيع والطباعة، الطبعة الأولى، دمشق، 1999، ص 241.

(81) جدوع (محمد)، كنعانيا بين الأسفار التوراتية والسرديات الصهيونية، دار كيوان للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، 2009، ص 22.

(82) دروزة، تاريخ بني إسرائيل من أسفارهم، ص 6، 7.

(83) أسفار العهد القديم في التاريخ، ص 107.

(84) قاموس الكتاب المقدس، ص 613- 614.

(85) الماجدي، المعتقدات الكنعانية، ص 198.

(86) تذكر التوراة، أنه بعد مقتل "هابيل وفرار قايين، أن آدم، رزق بابن يدعى "شيث"، وهو الذي منه انحدر الجنس البشرى. انظر: تك 5.

(87) عبودي، معجم الحضارات السامية، 669.

(88) الماجدي، المعتقدات الكنعانية، ص 202.